إضاءة

في أحد الأيام أرسلوني إلى رئيسة مشرفات الجاريات، التي تهتم بأمور السلطان بشكل خاص. كانت المرّة الأولى التي أقترب فيها من دائرة السلطان منذ أن أتيت إلى القصر، وعندما اقتربت من الممر المؤدي إلى دائرته، سمعت أصوات أقدام توحي بأن هناك بلبلة في الداخل. وبمجرّد أن وضعت يدي على مقبض الباب، اهتزّ فجأة

ذكريات آغا الحرملك

نهايات الزمن العثماني بعيون مُهمَّشيه

عمل استشراقي لـ جان جوزف بنجامن كونستان، 1800 (Getty)

سعاد درويش

في أول يوم جاؤوا بي إلى قصر يلدِز، استدعاني مساعد رئيس الآغاوات، وسألني بلهجة عنيفة:

- ما اسمك؟

لم أكن أستخدم الاسم الذي وضعه لي والداي. ومنذ أن خطفوني، كان كلّ من يشتريني يضع لي اسماً جديداً. فقلتُ آخر اسم وُضِع لي:

- إنني عَبْدُكُم نادر يا أفندم.

- من غير الممكن أن يصير اسمك نادر، لأن والد أفندينا في العمل اسمه الآغا نادر. ولا يمكنك أن تستخدم نفس الاسم. يجب أن أجدَ لك اسماً آخر. اعتباراً من هذه اللحظة سيصير اسمكَ خير الدين.

- أمرُكَ فوق رأسي يا آغا أفندي. أطال الله عمرك.

وهكذا أخذتُ اسماً جديداً، مثل الكلب الذي يُغَيِّر صاحبَه. كنتُ عبداً، وكنتُ الشخص الذي لا يمكنه أن يحتفظ حتى باسمه...

كان الآغا الذي يتحدث معي كبيراً في العمر، وبديناً مثل حيوان أحسنوا تسمينَه. جِلده الأسود كان يلمع، وصوته الناعم كصوت امرأة، يخلق تناقضاً بينه وبين جسده الهائل. قال لي بهذا الصوت:

- استمع إليّ جيداً يا خير الدين. لقد صرتَ اعتباراً من اليوم من عبيد القصر الهُمَايُوني. وأظن أنّك لا تعرف معنى هذا حتى الآن. ولكن ستعرف لاحقاً بالتأكيد. لكنني سأُعَلِّمكَ الأشياء التي يجب أن تتعلمها الآن، لأنك إذا لم تتعلم هذا فلن تنعم بالراحة هنا. نعم... ينبغي عليك ألا تحشر أنفك في ما لا يعنيك، وألا تُظهر فضولاً في غير محلّه. والشيء الذي تعرفه دون قصد، من الممكن أن يجلبَ لك المصائب في هذا القصر. كن ذكيّاً وصامتاً. وأُكرّر لك، لا تكن فضوليّاً أبداً.

أعطيتُه وعداً بألا أكون فضوليّاً. إلا أن الحفاظ على هذا الوعد كان صعباً عليّ. فهل من الممكن ألا تكون فضوليّاً بين كل هذه الأشياء الجميلة والمُلْغِزة؟ إنني لم أر في حياتي حتى الآن غير قريتي والبيت الذي أُسِرْتُ فيه ومن بعده القصور الصغيرة التي رفعت مستوى رفاهيّتي درجةً درجة.

كنتُ قد سمعتُهم أكثر من مرة، وأنا في بيوت من أسروني، يتحدثون عن السلطان وقصره، ويقولون إنه إمبراطورٌ تحت حُكْمِهِ شعوب لا حصر لها، وهو خليفةٌ لكلّ المسلمين.

كنتُ أرى من شبّاك غرفتي، القصورَ الصغيرةَ وقسماً من دائرة الحرملك في القصر المليء بالشلالات. وكانت القصور متصلة ببعضها البعض عبر جسور مغلقة وطرق بين الحدائق. شبابيكها مزخرفة من الخارج، وخلف هذه الشبابيك تعيش أجمل نساء العالم. كنّ أسيراتٍ مثلي، لكنَهنّ يعشنَ هنا في ترف. وقد سُرِقنَ في طفولتهنّ أو تم بيعهنّ من قبل أقربائهنّ. وكنّ مثلي.. رأينَ العديد من المتاعب حتى وصلنَ إلى هنا. وتم بيعهنّ من شخص لآخر، ومررنَ بمِصْفَاة الجَمَال، وتم اختيارهنّ من سوق العبيد حتى وصلنَ أخيراً إلى القصر.

في هذا القسم من القصر، تعيش السلطانات اللواتي لم يتزوجنَ بعد، والأمراء، والسيدات الهوانم، وبعض الجاريات اللواتي تم اختيارهنّ بعناية. وكان لقب «السيدة الهانم» يُطلق فقط على زوجة السلطان التي أنجبت منه.

كنتُ في الخامسة عشرة، وكنتُ شخصاً فضوليّاً، ومتحمساً لمعرفة كل ما بداخل هذا القصر لكي أرى الحياة هناك وأمارسها. وبعد أن تربيتُ لمدة عام في دائرة الآغاوات، أخذوني إلى الحرملك. كنتُ في معيّة مشرفة الجاريات، وهي امرأة شركسية مُسنّة تُدعى مَلاكْبَار. أدركتُ منذ دخولي إلى الحرملك أن خلف هذه الأشياء الجميلة توجد كآبة عميقة رغم الثراء والترف والأُبَّهة. وبلا شك، يُخطئ كلُّ من يظنُّ أن داخل حرملك القصر العثماني لا يوجد غير السعادة.

لم يكن الضوء يدخل كثيراً من بين الشبابيك المزخرفة. والناس يهمسون، وكأنهم خائفون من إزعاج شخص مريض بشدّة. والنساء اللواتي يرتدينَ الأقمشة الغالية يعبرنَ في صمتٍ من الطُرُقات المفروشة بالسّجاد. وآغاوات الحرملك الذين يرتدون الـ«اسْتَانْبُولِين» الأسود والطربوش الأحمر، يُذكِّرون بالأشباح أكثر من البشر.

وفي أحد الأيام أرسلوني إلى رئيسة مشرفات الجاريات، التي تهتم بأمور السلطان بشكل خاص. كانت المرّة الأولى التي أقترب فيها من دائرة السلطان منذ أن أتيت إلى القصر، وعندما اقتربت من الممر المؤدي إلى دائرته، سمعت أصوات أقدام توحي بأن هناك بلبلة في الداخل. وبمجرّد أن وضعت يدي على مقبض الباب، اهتزّ فجأة فسحبت أصابعي الخائفة من عليه. انفتحَ الباب، وخرجت مشرفات الجواري واصطففنَ في إجلال. انسحبت إلى إحدى الزوايا، وأنا فَزِعٌ حتى من التنفس.

كان يُرى في الداخل رجل يبدو في الخامسة والثمانين، بلحيةٍ كثيفةٍ سوداء، ووجه شاحب حدّ الموت. انحنيتُ بمجرد أن رأيته، لأنني فهمتُ أن هذا هو السلطان عبد الحميد. كان يرتدي بدلة من القماش الإنكليزي، تليق بالموضة الأوروبية، وعلى رأسه طربوش كبير. وعندما رأى السلطان أمامه شخصاً لم يعرفه من قبل، انسحب خطوة إلى الوراء، دون أن ينتبه. إلا أن هذا الحال لم يطل كثيراً، وقال بصوت عالٍ:

- من أنتَ، وماذا تفعل هنا؟

لم أستطع أن أنطق بكلمةٍ واحدةٍ، وكأنّ ليس لدي جواب أو صوت من الأساس. أغضبه صمتي أكثر، وصرخ بصوت أعلى:

- نسألك من أنت، وماذا تفعل هنا؟

- إنني عبدكم خير الدين. جئتُ بخبر من مشرفة الجاريات إلى رئيستهنّ.

- وما هو هذا الخبر، ومنذ متى وأنت هنا؟

كانت رئيسة الجاريات تقف بجوار السلطان وهو يحدّق فيّ ثم نظر في اضطراب إلى الممر الخارجي، وقال:

- ما هو الخبر؟

كنتُ في موقف صعب، وفهمت أنه سيكون من الجيد لي أن أجيبه على الفور:

- مَلاكبَار تريد إذناً منها لكي ترتدي ثياباً خضراء في جلسة المساء التي تقيمها الهانم أفندي الثانية.

احمرّ وجه المرأة. لقد أخطأتُ على الأرجح، لأن شرح مثل هذه التفاصيل إلى السلطان أمر معيب وغير مهذّب. سألني فجأة وكأنه لم يسمع جوابي:

- إلى أين ذهب؟

لم أفهم سؤاله، ومن أين خرج هذا السؤال الآن؟ تطلّعت حولي وأنا بلا حيلة، فصرخ مرّة أخرى:

- إننا نسألك أنتَ، إلى أين ذهب؟

اقتربت رئيسة الجاريات من السلطان قليلاً، وقالت بشفقة الأم:

> كنتُ الشخص الذي لا يمكنه أن يحتفظ حتى باسمه
>
> في الحرملك أدركتُ أنّ خلف هذه الأشياء الجميلة كآبةً عميقة

- لم يخرج أحدٌ من هذا الباب يا مولاي، ولم يدخل أحد. عَبْدَتُكُم لم تفارق بابكم منذ صلاة العصر. إنكم تُزعجون أنفسكم الآن بلا سبب.

كان السلطان غاضباً ولا يسمع أحداً. نظر إليَّ وازدادت الشبهة في عينيه ثم سأل:

- هل كان يرتدي زيّاً مدنيّاً أم عسكريّاً؟

قالت المرأة:

- إنكم تهلكون أنفسكم يا مولاي. فلتغضب عليَّ كما شئت، لكنني سأقول لكم نفس الشيء.

- ولكننا رأيناه مثلما نراكم الآن.

- أخوكم مريض يا مولاي، وليس باستطاعته أن يخرج من القصر.

كلّ من في القصر كان يعرف أن السلطان يخاف كثيراً من فكرة هجوم مؤيدي السلطان مراد على القصر، وإنزاله من على العرش. فالخوف من الموت والحرص على العرش وعذاب الضمير، جعلت منه رجلاً موسوساً. ولهذا السبب، صار أكثر استبداداً.

إنه يدّعي أنه رأى في غرفته الآن، السلطان مراد المحبوس في قصر تشيراغان منذ سنوات، ويبحث عنه بنفسه في القصر.

(ترجمة: أحمد زكريا وملاك دينيز أوزدمير)

«الأدب الجديد» والسجن

إلى جانب دورها ككاتبة، لعبت سعاد درويش (الصورة) دوراً مهماً في تسليط الضوء على قضايا المرأة التركية، بمشاركتها في تأسيس رابطة «الكيان النسائي» في الثلاثينيات، كما لعبت دوراً مهماً في التنظير لأدب الواقعية الاجتماعية من خلال إصدارها، مع زوجها الكاتب والسياسي رشاد فؤاد، مجلة «الأدب الجديد»، التي عرّضتها للسجن عام 1941 بعد عام واحد من صدورها، وأُغلقت بسبب ميولها اليسارية.

تصويب

سعاد درويش

ملاك دينيز أوزدمير

من أجل فهم الدور الذي لعبته مبكراً الكاتبة التركية سعاد درويش (1903 - 1972) في الأدب والصحافة، يجب النظر إليها كامرأة عثمانية شهدت مرحلة التغيّرات الجذرية التي طرأت على جميع النواحي، منذ انهيار الدولة العثمانية حتى قيام الجمهورية التركية. وقد نشرت درويش العديد من التحقيقات الصحافية خلال حرب الاستقلال التركية، كما شاركت في اجتماعات معاهدة لوزان الثانية عام 1923.

ورغم كونها واحدة من رائدات أدب الجمهورية التركية الجديدة، إلا أنها لم تكن ضمن أدواته، ولم تشارك في تأسيس ما عُرف بتيار «الأدب القومي» بعد قيام الجمهورية التركية؛ فقد انعكست فكرة «القومية التركية» على أدب تلك المرحلة، وكرّس أغلب الكُتّاب الأتراك أعمالهم لخدمة فكرة القومية، مثل الشاعر فاروق نافذ تشاملي بال، والروائي يعقوب قدري، اللذين امتلأت أعمالهما بمشاعر القومية الجديدة.

وفي مثل هذه الأجواء تحديداً، كانت أعمال درويش تركّز على تناقضات المجتمع التركي الجديد ومشكلاته، وحجم دور المرأة فيه، والمشاكل التي تواجهها، والعنف الذي يُمارس عليها. وقد عبّرت عن رأيها بوضوح في قضية «الأدب القومي»، في استطلاع رأي أجراه الصحافي التركي نُصرت صفا عام 1938، حول إمكانية إنشاء أدب قومي، فأجابت بشجاعة: «لا أعرف ما يسمّونه الأدب القومي، ولا أؤمن بهذه الفكرة». وقد أثار جوابها غير السائد آنذاك نقاشات عديدة، وتم اعتبارها خارجة عن الأيديولوجية الأتاتوركيّة/القومية.

(كاتبة ومترجمة تركية)

إطلالة

زمن الاغتراب

ممدوح عزام

لا يُخشى على الأدب السوري الذي يُكتب خارج سورية من أن يصاب بأمراض الحنين. حتى اليوم، لا تزال النار هي التي تكوّن الكتابة. فالمحرقة مستمرّة، والكتابة تُريد أن تلاحق الجمر قبل أن ينطفئ، أو تسجّل الآثار التي تركها المتقاتلون على الأرض أو بين الناس، أو توثّق كلّ حركة جرت في هذه المنطقة منذ عشر سنوات إلى اليوم.

وقد انتدبت لهذه المهمّة الجليلة الرواية وحدها، بمشاركةٍ من هنا أو هناك من القصة القصيرة، بوصفها رديفاً أميناً للأخت الكبرى. بينما كان السوريون واللبنانيون الذين هاجروا في بدايات القرن العشرين إلى الأميركيّتين، قد وجدوا في الشعر، أي في نوع أدبي آخر غير الرواية، الطريقة المناسبة للتعبير عن مشاعرهم في الاغتراب الذي سموه، أو سُمّي، مهجراً، بوصفه مكاناً أخيراً للعيش بديلاً من الوطن. واللافت في الأدب المهجري أنّ الرواية لم تشغل أولئك الأدباء الموهوبين، وأنّ ما كُتب من الأعمال النثرية القصصية إنّما كان يشبه الرواية، دون أن يرقى إلى نوعها، أو يتقصّد تلبية حاجاتها الفنية، لا لدى جبران خليل جبران، ولا لدى ميخائيل نعيمة، وهما اللذان عُرف عنهما كتابة القصص. والطريف في هذا الشأن أنّ بلاد الاغتراب التي رحلوا إليها كانت تشهد احتفاءً واضحاً بالجنس الروائي.

لا يبدو أن أيّ روائي من السوريين الذين يعيشون في المنفى اليوم، أو لنقلْ خارج سورية، ومنهم مَن قرّر أن يختار البلد الذي استقرّ فيه مكاناً نهائياً للعيش، مستعدٌّ لتسمية الكتابة التي ينتجها أدباً مهجرياً. ولسنا في مواجهة مشاعر مشابهة لتلك المشاعر التي ميّزت الأدب المهجري السوري اللبناني، وهذا فارق نوعي سيكون له دور كبير في رسم مسار الأدب السوري في المهاجر، سواء من ناحية المضمون، وهو كما يظهر مختلفٌ تماماً عن مضامين أدب المهجر الذي عرف في بدايات القرن، أو من ناحية الشكل، أو من ناحية اختيار النوع الأدبي للتعبير عن الموقف. فالرواية ليست النوع الأدبي المناسب للإنشاء أو للخطابة أو للتعبير عن الأشواق.

غير أن كلا الأدبين ظلّ مرتبطاً بالمكان الذي جاء منه الكاتب، وحتّى اليوم - وأنا أقيّد الكلام بالزمن الحاضر لأنّنا لا نعرف ما التطوّرات المقبلة التي ستواجه المشهد - فإن سورية، أو المدن السورية، هي الحاضرة في أعمال الكتّاب السوريين الذين يعيشون خارج سورية، وليست لندن ولا باريس ولا برلين أو هامبورغ أو إسطنبول أو أيّة مدينة من المدن الأخرى التي يعيشون فيها. ولا يزال الزمن، أقصد زمن الاغتراب، ضئيلاً، بل يكاد يكون معدوماً في النتاج الروائي السوري المغترب.

ظلّت الرواية السورية تحمل هذا الاسم، أي إنّها لا تزال تعلن ارتباطها بعالَمها الذي يشكّل موضوعاتها، وأحداثها، وشخصياتها، وهو عالَم سورية وما حدث في سورية، والأمر الجوهري الذي يمكن ملاحظته في القصة والرواية السوريتين اللتين يكتبهما الروائيون الذين باتوا في المغتربات - وأنا أشير إلى ما استطعت قراءته من بينها - أنّ كلّ الروايات تحصر موضوعاتها في العقد الثاني من هذا القرن، وهي العلامة البارزة التي تؤكّد الرابط بين الكتابة والمرجع.

(روائي من سورية)

وصول متأخِّر إلى تركيا بتسعين عاماً

الرواية المنسية لصاحبة «الكتاب الأسود»

> هل المناخ العام في تركيا لم يكن يسمح بالحديث عن القصر العثماني بعينَي بطل الرواية «الخَصيّ»، أم أنَّ طريقَة تعرُّض الكاتبة للحياة الشخصية للسلطان عبد الحميد هي ما ساهم في تأخّر نشر الرواية كل هذه عقود ؟

«الحريم التركي»، لوحة استشراقية لـ غورغ فرانتز هورمان، منتصف القرن 16 (Getty)

بعد مرور تسعين عاماً على تأليف الروائية التركية سعاد درويش «ذكريات آغا الحرملك»، صدرت الرواية أخيراً في تركيا (بصورتها الكاملة في كتاب) عن دار «إتهاكي» في شباط / فبراير الماضي. وقام بجمعها الباحث سردار صويدان، الذي يذكر في مقدّمة الرواية أنها تُرجمت ونُشرت بالألمانية في سنة كتابتها عام 1931، وكانت على هيئة فصول في صحيفة «تيمبو» الألمانية، لكنّها ظلّت غائبة عن تركيا حتى عام 1953، حيث نشرتها صحيفة «صون بوسطة» على شكل فصول أيضاً، رغم انتشار بقية روايات سعاد درويش على رفوف المكتبات في تركيا.

أدب جديد

وتُعد درويش من رائدات أدب الواقعية الاجتماعية التركي. وُلدت في إسطنبول عام 1903، وبدأت بنشر أعمالها منذ عام 1921 برواية «الكتاب الأسود»، واستمرت في إصدار العديد من الروايات والمجموعات القصصية حتى رحيلها عام 1972. وتُعد أيضاً أول صحافية تركية تعمل مراسلة في أوروبا، كما أسست مع زوجها الكاتب والسياسي رشاد فؤاد برانير مجلة «الأدب الجديد»، بعد عودتها عام 1932 إلى تركيا، التي تركتها وسافرت إلى ألمانيا عام 1927، من أجل الدراسة في المعهد الموسيقي، والتحقت بعده بجامعة برلين لدراسة الفلسفة والأدب.

كتبت سعاد درويش رواية «ذكريات آغا الحرملك» أثناء إقامتها في برلين، وسلّطت فيها الضوء على أبرز الأحداث في السنوات الأخيرة من حكم السلطان عبد الحميد في قصر يلدِز.

نظرة أخرى

الجديد والمهم في هذه الرواية أنها تتناول عوالم الحرملك ومؤامراته بعيون شخص خَصِيّ أسود، وهو الآغا المسؤول عن حراسة حريم القصر. كما تركّز على سيكولوجيّة هذا الشخص، الذي جاؤوا به من أفريقيا، ووصْفه لما مرّ به منذ أن خُطف وتم بيعه كالعبيد، حتى وصل إلى القصر العثماني الذي سيصفه بطريقة غير شائعة.

ومن يقرأ العمل لا يَستبعد أن درويش التقت فعلياً بـ «آغا الحرملك» واستمعت إلى قصته وذكرياته قبل أن تصوغها في نص روائي مؤثّر.

أسئلة عديدة يمكن طرحها حول أسباب عدم الاهتمام بنشر الرواية، ككتاب، في تركيا؛ فهل المناخ العام في البلاد لم يكن يسمح بالحديث عن القصر العثماني بعينَي بطل الرواية «الخَصِيّ»، أم أنّ طريقة تعرُّض الكاتبة للحياة الشخصية للسلطان عبد الحميد هي ما ساهم في تأخّر نشر الرواية كل هذه عقود؟ أم أنّ هناك أسباباً أُخرى ربما لم تظهر بعد؟

أحمد وملاك دينيز...

فعاليات

تقيم مؤسسة **فونداتسيوني غرامشي** (تعنى بالدراسات حول المفكر الإيطالي ومقرّها روما) مساء اليوم ندوة **حزب للشباب: ولادة الحزب الشيوعي لإيطاليا**، بمشاركة ألدو غوستي وإيلينا باباديا وليوناردو ربوني وباتريسيا دولياني ولوكا غورغوليني، حيث يشرحون أسباب تأسيس أنطونيو غرامشي لحزب جديد في 1921.

تنظّم مؤسسة **بيت رسوم الصحافة** (سويسرا)، مساء اليوم، جلسة نقاش بعنوان **الرسومات الصحافية ومواقع التواصل الاجتماعي**. تقام الجلسة بحضور المشاركين فيها ودون جمهور و تبثّ عبر صفحات المؤسسة على الإنترنت، ومن المتحدّثين فيها رسّامة الكاريكاتير التونسية نادية خياري (الصورة) والباحثة ماري ديشنو والإعلامي لوك شيندلهولز والرسّامان شابات وفنسان ليبي.

افتُتح السبت الماضي في **غاليري القاهرة عمّان** بالعاصمة الأردنية معرض **39 في 1** الذي يضمّ أعمال تسعة وثلاثين فناناً أردنياً وعربياً منهم عبد الوهاب عبد المحسن (اللوحة) من مصر، وسلمان المالك من قطر، وإسماعيل عزام من العراق، و تعرض بواسطة تقنية الأبعاد الثلاثية، ويتواصل حتى نهاية الشهر الجاري.

عبر منصة **كونفيرنسيا**، تلقي الباحثة الفرنسية **جيرالدين غيران** (الصورة) محاضرة **إمبراطورية الشاي: بين الرهانات الاقتصادية وفن الحياة** عند الخامسة والنصف من مساء اليوم بتوقيت فرنسا. تعود غيران إلى مرحلة وصول الشاي إلى الغرب، في القرن الثاني عشر، باعتبارها نقطة بداية لتصادم تاريخي.